

الأدب في سبر أعوار :

ملتن...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

- ١٧ -

مهر على القساوسة :

اعتزل ملتن الشعر إلى حين لعله ظنه قريباً ، فلم يدر بخلده
أن هجران أحب شيء إلى نفسه سوف يمتد عشرين عاماً . والحق
أن اعتزال ملتن الشعر والأدب على ما كان من فرط تحمسه له
وانكبابه على الأخذ بأسبابه ، أمر يحمل المرء على العجب الشديد
يادى* الرأى ، ولكن دواعي العجب لا تلبث أن تزول إذا عدنا
إلى خلق ملتن وزعات وجدانه

خلق ملتن محارباً يحب النضال ويمشق بفطرته الحرية ، فلن
يستطيع أن يغمض العين عما يرى من خلل أو فساد ، وإن
يستطيع أن يظل جامداً تلقاء ما يراه ظلماً أو استبداداً بالرأى في
غير حق ولو كان في ذلك هلاكه ؛ كذلك رأيناه وهو بعد طالب
بالجامعة ، وكذلك رأيناه وهو يفصح عن عقيدته الدينية في إيطاليا ،
وكذلك نراه اليوم إذ يوقد نار الحرب على القساوسة

وخلق ملتن دينياً تقياً غلماً لعقيدته تواقاً إلى الإصلاح ،
لذلك ركن إلى البيوريتانز في كثير مما ذهبوا إليه ، وإن خالفهم
في إصرافهم في التزمت ومثالاتهم في النور من الفنون ومن
طبيبات الحياة

وكانت روح البيوريتانية يومئذ ، أو ما يهجس في نفوس
أشباعها من الرغبات هو إصلاح الكنيسة كما أصلحت الكنائس
في القارة وتقرير مبدأ الحرية الفكرية والسياسية ، وقد استقرت
هذه الرغبة في نفس ملتن وآمن بها إيماناً قوياً

واعتقد ملتن كما اعتقد جمهرة البيوريتانز أن القساوسة في
إنجلترا بمنصبهم لنظام الكنيسة ومظاهرهم الملك في عناده

وطغيانه هم العقبة الكؤود في سبيل الإصلاح وفي سبيل الحرية ؛
لذلك أيقن طالبو الإصلاح أن لا أمل لهم في عمل مجد إلا أن يقضوا
أولاً على الأساقفة وسلطانهم ، ولهذا أقدم ملتن فيمن أقدموا
لمحاربة الأسقفية ؛ ولهذا اعتزل الأرثوذكس أو الفردوس المفقود ،
أو سواها مما كان يملأ خياله من الشعر ، وآثر أن يجيب داعي الله
بالدفاع عن دين الله

بيد أنه على الرغم من حماسه إذ يقدم على مناضلة القساوسة
كان يحس في أعماق نفسه عظم تضحيته بهجرانه الشعر ، فلقد
انقطع له منذ حداته ، وتوفر على الاستعداد والدرس ، وامتلات
نفسه طموحاً إلى شيء يسلكه في الخالدين ؛ وكان هذا الطموح
عزاء قلبه وبهجة نفسه وأنس روحه في عزلة القاسية ، وفي
دراسته الطويلة الشاقة !

ولكن لم يك من هذا الهجران بد ، فلم يك يسه في مثل
ذلك الوقت كما قال أن يقف بمزلة « وكنيسة الله تحت أقدام من
يهينها من أعدائها » ، ولم يك لينجو من عذاب ضميره لو لم يجعل
ما اكتسب من ثقافة ومعرفة وفقاً على الدفاع عنها ، وفي رأيه
أنه إذا لزم الصمت ، فإن الله يؤاخذ به صمته ، فلن يغفر الله له
أن يقبل الفراغ والقدرة على الدرس ، وقد تهيأ له بمرق قوم
آخرون ، ولا ينفعهما إلا في أن يزين بهما موضوعات هي من
نحر الحياة وغرورها ، ولكن « إذا كانت قضية الله ، وحقت
إجابة داعي الله بتمرة كنيسته ، فإن الله سميع إليك إذ تطلق
صوتك ... فإن بقيت أبكم كاللابة ، حق عليك منذ ذلك الوقت
ما تصير إليه من إنهم بصمتك الذي يشبه صمت البهائم ! »

ولئن كان هم أن يكتب موضوعاً يكسب به الفخر ، فليس
هذا وقته والجليل كله يشترك في صراع من أجل الحرية تنلطي
ناره ، أو يشهد على الأقل ذلك الصراع ، وينتظر الناس وأنفاسهم
عائقة ما ذا يكون من أمر هذه الحركة ، أو كما قال ملتن : « إنه
لن الحق أن تلقى بشيء كنيسته جاهداً في نسق عال إلى قوم هم عنه
ساهون ، إذ يقطع إسماهم إليه ما يزرخ به عصرهم من ضجيج
وصخب » . أضف إلى ذلك أنه لم يكن يستقد أنه أخذ أهفته
لذلك الشيء بعد ، فإنه يشير إلى ذلك حتى بعد بدء الحرب على
القساوسة بنحو عام قائلا : « إنني لم أستكمل بعد في عقلي دائرة
دراساتي الشخصية » !

شاكية صاخبة ، فلن يدخل في إرادة الإنسان بعد ذلك ما ذا يقول ولا ماذا يخفى في نفسه . « ولكن يؤمن ملثن بأن الله سيثبته على فعله وسيهبه القوة والإقدام ، ويمد له في حياته ليكون بوق النصر كما كان بوق المركة ، واقد ظل أثناء المركة يفكر فيما هو عائد إليه بعد أن تنتهي الحرب .

والحق أن ملثن قد أقاد من المركة ما لم يحظر بباله عند دخولها ، في أثناء تلك المركة الطويلة تكونت في نفسه ملحمة الكبرى الفردوس المفقود ، فكاتب كلحمة دانتي عملا يس قوامه الفصاحة والخيال والقدرة الفنية فحسب ، بل أضيف إلى ذلك تجربة الحياة ومعاناة خصوماتها والوقوف من كتب على عوامل الشر والخير في النفس البشرية وفي المجتمع ، وتذوق طعم الأمل مرة والحياة مرة ، والنفاذ إلى أعماق المواقف والانفعالات ثم معرفة كيف يكون اليأس القائم بعد الأمل الباسم ، فلا عجب أن يتغنى الشاعر بعد ذلك بالفردوس المفقود ، وقد شهد فقدان بني وطنه ما كان يرجوه لهم ويرجو معه المصلحون من حياة الدين والسياسة على هذه الأرض كحياة الفردوس .

وفي هذه المركة تهيأت في نفسه الملحمة فلم يبق إلا أن ينفذها وأن يلبسها لباس الشعر ؛ والحق أن المركة أجدت عليه أكثر مما أجدت قراءاته ودراساته ، إذ استطاع أن يضيف خبرة الحياة إلى هبة الفن وأن يترك لهذه الدنيا أثرأ فذاً من هاتيك الآثار الخوالد التي ينفذها كل عصر وتأنس إليها كل بيئة .

ومن الخطأ أن نعد دخول ملثن تلك المركة انتصاراً منه لأصدقائه البيوربتانز فحسب فإن حبه الحرية وميله إلى نصرتها أبداً هو الشعور الحقيقي الذي دفع به إلى الحرب ، وكانت غايته التي يصبو إليها أن يعين الناس طلقاء في أفكارهم وأعمالهم بعد أن يذهب سلطان القساوسة القائم على التعصب والاستبداد بالرأى والاضطهاد ، وكان ملثن بحمته وثورة نفسه يمثل في الواقع روح العصر ، في العصر كله ثورة على الطغيان في أي صورة من صورته وما كانت البيوربتانية يومئذ فلسفة دينية فحسب ، وإنما كانت فلسفة دينية وثنية سياسية معاً .

ومهما يكن ماسد عنه من عبارات تشعرنا بتردده وإشفاقه فانه أقبل في حماية عظيمة وشجاعة فذة بعد أن ابتدا التصال ورأى نفسه في غمار المركة ، وإنما كان ما خيل إليه أنه تردد

لذلك يدع قيثارته إلى أجل لعله يكون قريباً يوم يرى وطنه على حد تعبيره : « وقد خلص نفسه من ذلك الطغيان الذي لم يكن مثل هذا الزمن أو انه ، ذلك الطغيان المستند إلى مقام كبار القساوسة ، والذي لا يرجي لأى فكر حر أو ذكاء ألمى أن ينمو ما دام له تجسسه واستبداده »

وتمت دافع آخر لا يقل خطراً عن هاتيك الدوافع يسوق ملثن إلى تلك الحرب ، وذلك هو عظيم ثقته في نفسه وفي الشعب الإنجليزي ، فهو منذ صغره — كما رأينا — يعتقد أنه كفؤ لمظالم الأمور ، فانهض لأمر — مهما كان خطره — إلا بلغ منه ما يريد ؛ واليوم يخالجه شعور أن نفسه تنطوي على قوة كامنة فيها إن هي أثبتت كانت ذات أثر عظيم في مستقبل الكنيسة وفي مستقبل وطنه . والحق أن وراء طموح ملثن نحو العظمة الأدبية طموحاً آخر نحو العظمة في ذاتها في أية صورة من صورها ، فلا ضير أن تواتيه في صورة الدفاع عن الحرية أو عن الكنيسة ، أما ثقته في الشعب الإنجليزي فكان مردها إلى أنه يرى بني قومه الشعب الذي اسطفاه الله على العالمين ، وأنه تجلى لخلقه من الإنجليز أول ما تجلى ، وأنهم سوف يقيمون على هذه الأرض مملكة الله التي ترى رأى الدين

ومع شدة حماسه لما هو مقبل عليه تراه ينطق قبيل دخوله المركة بما يشعرنا بتردده وإشفاقه ، نجد شاهداً على ذلك في قوله بعد أن أشار إلى ما كان فيه من استغراق في الأدب والشعر : « ما أقل ما يحفزني من ميل إلى أن أقطع ما أنا بسبيله من مثل هاتيك الآمال ، وأن أترك عزلة هادئة ممتعة نكتنفها تأملات سارة وثيقة لأقطع بسفينتي في بحر مضطرب تملأه الضوضاء والجدل الصاخب » . وهو فضلاً عن ذلك يحس أنه ترك ما يحسن إلى ما لا يحسن مما يزيد شعوراً بتضحيته ، وأنه نسي نفسه وما كان يتجرع إليه من مجد أدبي ليجيب داعي الله ، نجد ذلك في قوله : « ما كنت لأختار لنفسى أن أنهج هذا النهج من الكتابة ، وأنا على علم بأنى هنا دون حقيقتي ، فقد أعدتني قوة طبيعية صادقة لعمل آخر ؛ ولذلك فأنى في هذا المنهج الجديد أحسن كأنما أستعمل يدى البشرى »

ولكنه يسلم إلى الله أمره ، فإن الهدى هدى الله ، انظر إلى قوله : « إذا جاء أمر الله بأن نشرع البوق وأن ننفخ فيه نفخة

البرسبترية محلها ؛ ولئن تم ذلك أصبحت انجلترا « مدينة الله » .
واتسرت الحياة الطيبة في أنحائها طولا وعرضا ، فان هؤلاء
القساوسة منذ حلوا بكثرت برى قبل اليوم بنحو اثني عشر قرناً
وهم في جملتهم لم يكونوا في انجلترا لأرواحنا واسفاه إلا سلسلة
من أئمة الهداية العميان الجهلاء ، ولأموالنا وتجارتنا إلا عصية
متلفة من اللصوص وللدولتنا وحكومتنا إلا هيدرا^(١) الأساءة
والمدوان .

ويتضمن هذا الكتيب ناحية من نواحي ملتن الدينية وهي
ما تصوره عن ذات الله سبحانه ، فعنده أن الله لا يحد ولا يوصف
بصورة معينة ولا تدركه الأبصار ، ولا يفوته هنا أن يتهم الكنيسة
بأنها تحاول تحديد ذات الله وتصويره وذلك في رايه أصل المخرافات
جيماً ، يقول عن رجال الكنيسة « كما لو استطاعوا أن يجعلوا
الله ينتمي إلى الأرض وأن يكون له مثل جسدنا ، وذلك لأنهم
لم يستطيعوا أن ينتموا إلى السماء ولا إلى عالم الروح » .

وجاء في هذا الكتيب رايه لأول مرة عن الشعب الإنجليزي ،
فهو الشعب الذي اصطفاه الله على العالمين ، وخلق بهذا الشعب أن
يرهن على أنه جدير بهذا الاصطفاء ، ويعلم ملتن رضاه عن النظام
الديستوري الإنجليزي في ذاته بل إنه ليفلو في امتداحه كل الفلو
فيقول : « ليس فيما سلف من الحكومات الدنية نظام كنظام
حكومتنا الانجليزية ، لا عند الاسبرطيين ولا عند أهل روما ...
حيث نجد أعظم الناس نبلا وأكثرهم جدأ وأبعدم نظراً ولهم
بحض إرادة الناس واختيارهم تحت سيادة ملك حر لا قيم عليه
الكلمة العليا والرأي الفاصل في أعظم المسائل » .

وينتهي الكتيب بإتهال إلى الله طويل حار ملؤه الماطفة
المصادقة أن يخلص كنيسة من هؤلاء القسيسين وأن ينزل عليهم
لعناته ، ثم يتنبأ بنبوءة فخواها أن فجراً بهيجاً يوشك أن ينهل
نوره على انجلترا ، ولن يعدم ذلك الفجر طائر الصداح ، فلمؤف
يتمنى من بين هؤلاء القديسين الذين يناخون عن دين الله شاعر
يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنم الله ويسجل نصر الله في
مملكة تنم بنعمة الحرية وقد تخلصت من القساوسة ومجدت
شاعرها المختار ...

الكتاب

(يتبع)

(١) التين الحراقى ذو الرؤوس المتددة كلها قطعت رؤوسه
نبت ثانية .

أسفاً منه على هجرانه الشعر والهيؤ له ...

وكيف بدأت الحركة ؟ لم يكن ملتن البادى بها وإنما بدأت
في البرلمان الطويل سنة ١٦٤٠ إذ تقدم البيوريتانز من النواب
بمقترح الأصل والفرع فمندند نشر أحد القساوسة وكان يدعى
هول كتيباً سماه « الاعلان المتواضع » ورد فيه على ما سماه بم
وزملاؤه الاعلان الأعظم كما رد على مقترح الأصل والفرع ؛
وأجاب خمسة من البيوريتانز سمو أنفسهم سيكتيمنس يدحضون
فيه ماذهب إليه هول ؛ وكان توماس بينج استاذ ملتن القديم أحد
أفراد هذه الجماعة ، ولذلك ظن أن ملتن اشترك في وضع هذا
الكتيب ؛ ثم توات الكتيبات كالمسهم من جانب البيوريتانز
ومن جانب خصومهم . وشد ملتن قوسه فيمن شد وأطلق أول
سهم من سهامه سنة ١٦٤١ في صورة كتيب له هو أول كتيباته
جعل له عنواناً طويلاً هو « حول الاصلاح الدينى فيما يتصل بنظام
الكنيسة في انجلترا والأسباب التى عاقته حتى اليوم » .

كان هذا الكتيب الأول أقل كتيبات ملتن صرامة في
القول وعرامة في الخصومة ، وإن كان ليبعد كل البعد عن أن
يوصف بالمدود إلا أن يقاس إلى ماسيأتى بعده ، وحسب القارى
أن يقع على خاتمته التى يدعو الله فيها أن يحمل المار خاتمة حياة
القيسين على هذه الأرض ، وأن يلقي بهم في الدرك الأسفل من
النار ليخلدوا فيها وليكونوا في مواطى غيرهم من أصحاب الجحيم ،
وفي صفحات الكتيب غير هذا من صارم القول وقاذع الوصف
ما يدل على غل الخصومة واحتدام السخيمة .

أتى ملتن في كتيبه هذا بموجز لتاريخ الكنيسة منذ القدم
فلم تعجبه في قديمها ولا في حديثها ، وما قساوستها الحديثون
إلا مقلدون يسيرون على نهج أسلافهم في مظاهر الصوم والصلاة
والتظاهر بالزهد ، وما كانت أسلافهم إلا سالفين غاوين ،
فالقسيسون أنفسهم خطأ في ذاتهم ؛ وهؤلاء الحديثون منهم
ليسوا قسيسين في شيء ، ثم يشير إلى النهضة الاصلاحية في انجلترا
ويذكر كيف تضررت ووقفت بسبب تمسب القساوسة واللوكة
واستبدادهم بآرائهم ، ويذكر الناس بهؤلاء الأحرار الذين
هاجروا بمقيدتهم عن أوطانهم الحبيبة والذين « لم يكن لهم حاصم
من غضب القساوسة إلا المحيط النسيح وصحارى أمريكا الوحشية » ،
والرأى منده أن يقضى على الأسقفية فتذهب إلى غير عودة ونحل